

## البعد المدني في التصوف من خلال مفهوم الصّحبة عند الغزالي

|      |                 |
|------|-----------------|
| تونس | د.جوييني سعاد * |
|------|-----------------|

الإرسال: 2021/10/31 القبول: 2021/11/05 النشر: 2021/12/01

### المخلص:

نجد في مفهوم الصّحبة استجابة لمثل هذه المقتضيات الاجتماعية للتّعايش، ونستطيع انطلاقا منه تفسير الأبعاد الإنسانيّة المُتخفية وراء حالات الوجد والشّوق والحبّ التي يعيشها المتصوّف على جهة التّحقيق. لكن يبقى تكوين تصوّر مستوفٍ عن معطى الصّحبة من جهتي الوظائف والمقاصد مشروطا أساسا بالعودة إلى مقوّمات نظريّة الأخلاق في الفكر الصّوفي. وذلك ما سعينا في بيانه انطلاقا من تصوّر الغزالي الجامع بين البعدين الفلسفي والصّوفي للمسألة، واعتمدنا تحديدا كتاب إحياء علوم الدّين الذي أتى فيه على الوجوه المختلفة للمعاملات عند المتصوّف. وبالجملّة نسعى هنا واستنادا إلى قراءة الغزالي في معالجة باب الصّحبة وفق مسار نأتي في القسم الأوّل منه على حدّها وأصنافها عند المتصوّف. ونبحث في القسم الثّاني عن شروطها ومقتضياتها، وننظر أخيرا في المقاصد من طلبها.

الكلمات المفتاحية:

التصوف، الصحبة، المدنية، الغزالي.

\* أستاذة باحثة مختصة في تاريخ الفلسفة الوسيطة والقديمة، مدرسة بالتعليم الثانوي وأستاذة عرضية بالتعليم العالي جامعة القيروان

## مقدمة:

نطرح في هذا العمل مشكل المعاملات وأسس التعايش المشترك في الفكر الصوفي، ونعمل على تحديد الأبعاد المدنية للتصوّف باعتباره تجربة إنسانية مخصصة.<sup>1</sup> ونسعى إلى الوقوف عند حقيقة علاقة "أنا" المتصوّف بغيره من الدّوات، في محاولة توضيح المنزلة الحقيقية للآخر في هذه التجربة، وكسر من ثمة كل قول بالانغلاق والتّقوقع داخلها.

ونجد في مفهوم الصّحبة استجابة لمثل هذه المقتضيات الاجتماعية للتعايش، ونستطيع انطلاقاً منه تفسير الأبعاد الإنسانية المُتخفية وراء حالات الوجد والشّوق والحبّ التي يعيشها المتصوّف على جهة التحقيق. لكن يبقى تكوين تصوّر مستوفي عن معطى الصّحبة من جهتي الوظائف والمقاصد مشروطاً أساساً بالعودة إلى مقوّمات نظرية الأخلاق في الفكر الصوفي. وذلك ما سعيّا في بيانه انطلاقاً من تصوّر الغزالي الجامع بين البعدين الفلسفي والصّوفي للمسألة، واعتمدنا تحديداً كتاب إحياء علوم الدّين الذي أتى فيه على الوجوه المختلفة للمعاملات عند المتصوّف.

وبالجملة نسعى هنا واستناداً إلى قراءة الغزالي في معالجة باب الصّحبة وفق مسارنا في القسم الأوّل منه على حدّها وأصنافها عند المتصوّف. ونبحث في القسم الثّاني عن شروطها ومقتضياتها، وننظر أخيراً في المقاصد من طلبها.

فهل كان الغزالي مخالفاً في تصوّره للصّحبة أهل الفلسفة والتصوّف أم أنّ للإرث النظري والصّوفي حضوراً ظاهراً في بناء فكره الأخلاقي الذي سنبين بعض ملامحه من خلال التّظر في قيمة المعاشرة؟

### 1- في حدّ الصّحبة وأصنافها عند المتصوّف:

تدخل مسألة الصّحبة في باب العناية بالوجه المدني لحياة المتصوّف. وتحدّد مدنيته أساساً في ضرورة الاجتماع الذي لا يتمّ بحسب الحاجة بل وفق حسن المعاش. ويُلَبّي مفهوم

<sup>1</sup> - يحيل مفهوم المدنية على الوجوه المختلفة للمعاملات الإنسانية ومنها التّدير السّياسي والأخلاقي، ويعرّف الفارابي العلم المدني "بأنّه يفحص عن أصناف الأفعال والسّنن الإرادية وعن الملكات والأخلاق والسجيا والشيم التي عنها تكون الأفعال والسّنن". إحصاء العلوم، تحقيق علي بوملحم، بيروت، لبنان، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1996، ص79.

الصَّحبة هذا المطلب لأنّه يحيل على قيمة المعاشرة مع الآخر وضرورة مخالطة الجماعة، لذلك رفعه الغزالي إلى مستوى الفضائل<sup>1</sup> التي لا يستقيم دونها الوجود. ونسجل في هذا المستوى أثر الفكر الفلسفي في تحديد الصَّحبة باعتبار الأصول الأخلاقية التي تنبني عليها مثلما سيتبين في القسم المخصّص للشروط في هذا المقال.

وتفيد الصَّحبة في بعض معانيها قريبا واقترابا من المجموعة يظهر في هيئات مختلفة منها المعاشرة والمناصرة والصداقة والأخوة.<sup>2</sup> فلا يكتفي المتصوّف بذاته ولا يغالبه الميل إلى التوحّد بل نراه منفتحا على تلميذه وأستاذه ومريديه وسلطانة، مُقبلا على الفقراء والأغنياء ليكون له منهم مناصرين يقوى بهم على الشدائد، وأصدقاء يُودعهم أسرارهم وإخوة يأمن لهم ودهم.

وبالجملة تُعبّر الصَّحبة عن وصل بين المتصوّف وذويه في درجات متفاوتة تتراوح بين الضعف والشدّة. فالصاحب يجد في غيره الرفيق والخليل والأخ والصديق، وكلّها ألفاظ مشحونة بمعانٍ مخصصة تؤكد قيمة القرابة الإنسانية مقارنة بالقرابة الدموية. ذلك أنّ الرفقة ترجمة للألفة التي تنشأ بين الذوات، فحين يفقد الواحد الآخر يستشعر في غيابه وحشة لم يعتدها كما تُعبّر الأخوة عن قوّة رابط القرابة المكتسب الذي يضاهي أو يفوق قوّة رابط النّسب.

<sup>1</sup> - ورد الباب الأوّل من الكتاب الخامس لربع العبادات تحت عنوان: في فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها، الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة، ط1، 1988.

<sup>2</sup> - اعتبرت الصَّحبة عند ابن سينا نوع للصداقة ويجعلها أوّل أنواعها، وكأنّا بالصَّحبة هي اللّقاء الدائم الذي تبنيه الذات مع الآخرين. فبعدها يكون الأُنس ويليهِ المشاركة، وكلّها مراتب إما تفرضها الصّلة الدموية أو الأمانة. وهو ما يؤكد منزلة الصَّحبة عند الفيلسوف كما المتصوّف. يقول الشّيخ الرئيس: " فأما أنواع الصّداقة فتلاثة: أوّلاها الصَّحبة وهي حالة تتأكّد بين اثنين لطول التّشاهد، وثانيها الأُنس وهو الالتذاذ بالالتقاء، وثالثها الوصلة وهي المشاركة، إما في القرابة كالمصاهرة وإما في النّعمة كالمهاداة. " الشّفاء، الخطابة، تحقيق محمّد سليم سالم، مراجعة إبراهيم مذكور، القاهرة، نشر وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميريّة، 1954، ص 137.

ونجد الغزالي مؤكّدا هذا المعنى الأخير للصّحبة أي التّآخي نظرا إلى وروده شرعا من جهة واعتبارا لوثوق الوصال الذي يحيل عليه من جهة ثانية، مُحافظا بذلك على ما وجد عند أسلاف المتصوّفة في مسألة تعريف الصّحبة<sup>1</sup>.

الأخوة إذن لفظ يجمع بين المنتمين إلى نفس الملة يساوي بينهم في المرتبة رغم اختلاف المنزلة لأنّ التقارب بات مُقوّما بالتّوحيد، والصّاحب الحقيقيّ للمتصوّف هو من يشاركه محبة الله ويُعينه على القرب منه. وتواترت معاني الصّحبة في تصوّر الغزالي من الرّفيق إلى الخليل إلى الأخ ليغيب بينها لفظ الحبيب. وهو ما يُمكن تعليقه بأنّ التّصاحب يشترط الحضور الوجودي والاختلاط المباشر بين الدّوات، في حين أن المحبة ليست مشروطة بالتّقدير الزّمني، وهو ما يجعل الوصل بها شديدا ودائما يعكس ارتفاعا عن كلّ أضرب المنافع<sup>2</sup>. ولعلّ ذلك ما جعل الحبّ يقترب في الغالب عند المتصوّف بغيريّة مختلفة هي الذات الإلهيّة.

تقوّي الصّحبة درجة الإيمان لذلك عدّ التمسك بمقتضياتها تعبيرا عن التمسك بما ورد في الشّرع من أحكام، واقتداء بما أتاه السّلف والصّالحون من أفعال تمجّد الخروج إلى الآخرين مثلما ورد عن الغزالي قوله: "حتّ جماعة من السّلف على الصّحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد"<sup>3</sup>.

يفصح هذا القول عن قيمة مفهوم الصّحبة شرعا لذلك جعله المتصوّفة من مقوّمات مذهبهم، غير أنّ المقصد لا يُغني عن المسلك ورفعة مقام الصّحبة لا يحجب عنا محاذيرها. إذا صحّ تبعا لذلك الاستغناء عن مخالطة فئة أهل السّوء ممّن تبقى العيوب عندهم ظاهرة فإنّ الأمر يبقى فيه استعصاء وغموض عند الذين يظهرون في هيئات تخالف

<sup>1</sup> - يمكن العودة في باب الصّحبة إلى الرّسالة القشيريّة وفيها ورد: أصبحوا مع الله فان لم تُطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركات صحبتهم إلى صحبة الله عزّ وجلّ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة، مطابع مؤسسة دار الشّعب، 1989، ص 490.

<sup>2</sup> - نقف على إشارة إلى هذا التّمييز بين الصّحبة والمحبّة في الحديث النّبوي الذي أورده القشيري وفيه سؤال الرّسول: "متى ألقى أحبائي؟ فقال أصحابه: بأيّنا أنت وأمّا أولسنا أحبّاك؟ فقال أنتم أصحابي، أحبائي قوم لم يروني وآمنوا بي، وأنا إليهم بالأشواق أكثر". الرّسالة القشيريّة، ص 286.

<sup>3</sup> - الإحياء، ص 204.

حقيقتهم أو مع اللذين يميلون إلى التغيّر وفق حاجاتهم. يوجد بين البشر إذن الفاسق والمنافق وغيرهم وهو ما يستوجب انتقاء الأخلاء بعناية والحذر من مسaire الهوى في اتّباعهم كما ورد ذكره في هيئة صارمة على لسان الغزالي: "اعلم أنّه لا يصلح للصّحبة كلّ إنسان، ولا بدّ أن يتميّز بخصال يرغب بسببها في صحبته".<sup>1</sup>

ومن المعلوم أنّ البشر أصناف فهم الأفاضل والأراذل والجامعون بين هذا وذاك،<sup>2</sup> وتقاس الفضيلة وضدها هنا بمدى الوفاء للتعاليم الشرعيّة وعليه لا تستوي مخالطة الجاهلين بالسيرة والمنافقين العاملين بخلاف ما ورد في القرآن، وإنّما الواجب الالتحاق بأهل الخلق طلبا للفضائل وتقربا إلى الله وتشبها بالصّالحين.

يتبيّن بذلك أنّ الصّحبة لا تُختزل في مجرد اتّصال نتواضع عليه كمجموعة تربطنا ذات المصالح، بل هو فعل اختيار حرّ وانتقاء مقصود. يخضع وفق ذلك إلى معايير مضبوطة تُلزم الفرد وتحدّد صيغ انخراطه في الجماعة. فإذا تراءى للمرء صفاء طبع غيره ووجه للفائدة منه وبطلان الضّرر عنه، أقبل عليه فيبقى على صحبته ويقوّيها أو يلغيها إن انكشف له تكدّر في الطّبع.

يحيل مثل هذا التمشّي على وجود ضربين من الصّحبة، ضرب زائف بزيّف شروط حصوله وهذا ممّا يزدريه المتصوّف ويحذره، وضرب حقيقي يعكس صحّة المنطلقات وصدق المقاصد يجعله المتصوّف مطلبا.

ينتهي بنا حدّ الصّحبة على النّحو المذكور إلى صعوبة المعاشرة لأنّ الأمر لا يتّصل بتعقيد عمليّة الانتقاء فحسب وإنّما يرتبط أيضا بشروط دوام الصّحبة، فالمعلوم أنّ أحوال البشر كثيرة التبدّل وهو ما يجعل المحافظة على الخلان أعسر من فعل الاختيار ذاته، ومن هنا نفهم طبيعة ودقّة الشّروط الموضوعية للصّحبة.

<sup>1</sup> - الإحياء، ص 203.

<sup>2</sup> - يُصنّف القشيري الصّحبة إلى ثلاثة أصناف: صحبة الخدمة وصحبة الشفقة وصحبة الأكفاء والنّظراء، الرّسالة، ص 286. لكن الغزالي لم يذكر في باب الصّحبة الصّنفين الأوّلين الذين أتى عليهما في باب آداب المتعلّم والمعلّم (ص 93-94 من الإحياء)، لأنّه لا يجوز اعتبار الصّحبة على جهة التّحقيق إلّا مع النّظراء فقط أمّا ما دونها فيدخل في باب الطّاعة أو التّراحم.

## 2- في شروط التّصاحب:

تُقام الصّحبة وفق شروط نظريّة تعود بالأساس إلى علي الطّبيعة والأخلاق، تخصّ الأولى بنية قوى النّفس وترتبط الثّانية بطبيعة الأفعال الصّادرة عنها. حافظ بذلك الغزالي على الأصول الفلسفيّة في تشريع العلاقات الاجتماعيّة التي تربط المتصوّف بغيره. وعليه تخضع النّفس الإنسانيّة إلى قوى مُتجاذبة تتوزّع بين الحيوانيّة والنّاطقة<sup>1</sup>. يصدر عن الأولى فعل التعقّل وهو الذي يميّزها عن سائر القوى الحيوانيّة المحركة والمدركة ويصدر عن الثّانية فعل التخيّل. تردّ عندئذ أفعال الإنسان تابعة لأحد هذه القوى فيأتي عن غلبة القوى النّاطقة أفعالا قائمة على التعقّل، ويأتي عن غلبة القوى الحيوانيّة أفعالا من جنسها.

ويختلف العقل عن الوهم والمخيّلة في قدرته على تمييز الأمور وبالتالي الفصل بين الحسّن والرّديء، في حين تبقى القوى الثّانية في مستوى الإدراك الضّبابي الذي ينتهي في غالب الأحيان إلى المغالطة. تُفهم تداعيات هذه المقاربة في مستوى القوى من خلال المقارنة التي أقامها الغزالي بين الأحمق والعاقل، بين من يقوى على بلوغ حقائق الأشياء في ذاتها ومن يقف عند ظواهرها لا عن كفاية بل عن عدم دراية. ويملك العاقل القدرة على التبصّر ومن ثمة يستطيع تكوين تمثّل مستوفي عن شخصية غيره والحسم في التواصل معه أو الانقطاع، في حين يكفي الأحمق بمستوى البصر الظّاهر وما يتبعه من آراء عرّضيّة عن المحيطين به فيحصل التّصادم معهم من حيث لم يشأ أن يكون أو يسيء إليهم وهو لم يقصد أن يفعل. يستطيع إذن من يملك القوّة النّاطقة وتكون عنده شديدة توظيفها خدمة له ويظهر ذلك في أمور المعاملات، فيُحسن بتوجيه من هذه القوّة اختيار خلّانه وينجح في المحافظة عليهم ويُفلح في تحصيل منافع عن مخالطتهم، وبالمقابل يُخفق من كانت عنده القوّة النّاطقة ضعيفة في تحصيل قابليّة الانخراط في الجماعة إلى حدّ النّفور منه وتجنّب مصاحبته.

<sup>1</sup> - أتى الغزالي على مبحث قوى النّفس وفصل القول في القوى الحيوانيّة بضرّبها المحركة والمدركة، وقوى النّفس النّاطقة والوظائف التي تخصّها في كتاب معارج القدس في مدارج معرفة النّفس، بيروت، لبنان، دار الآفاق الجديد، ط2، 1975.

نقف بناء على ما ذكر عند قيمة شرط التعقل، فصاحب الفطنة ينتهي إلى تحصيل وصل بغيره يتوطد بالتدريج حتى تبلغ علاقته بالجماعة أفضل مراتب المعاشرة رغم ما قد يصحبها من تعثر في البدء، مدفوعا في ذلك بطبيعة الغنم المأمول من الدخول في تجربة الالتحام بالآخرين. ولا يكفي في هذا المستوى التمسك بوثاق التعقل للنجاة وضمان صحة على جهة التحقيق وإنما يُضيف الغزالي إلى ذلك إلزام "مقاطعة الأحق" "تجنباً للمهالك وأساسها خسران مقاصد اللقاء المطلوب من الصّحة.

يقول: "أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل، فلا خير في صحة الأحق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت، كيف والأحق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري {...} ولذلك قيل مقاطعة الأحق قربان إلى الله"<sup>1</sup>.

تُقاس الصّحة الحقّ إذن بمدى الاستجابة إلى المقصد الأصلي منها بما هو الاستئناس بحضور الغير والرّفقة بمعايشته، والحاجة الدائمة إلى أخوته بعيدا عن كلّ ظرفيّة أو انزياح نحو الانقطاع. وهذه أمور تُضمن عن تموضع صحيح لقوى النفس، فإذا كانت الحيوانيّة هي الغالبة أتت الأفعال تابعة لها مُوجّهة بالهوى فلا تطول الصّحة ولا تدوم المعاشرة لأنّ أصولها مُتقلّبة، أمّا إذا كانت النّاطقة هي المتسلّطة ألزمت ما دونها وسيّرتها وفق منافع حقيقيّة ثابتة تُطلب من المصاحبة. وعليه لا تصحّ الصّحة وفق الغزالي إلّا للعاقل، أمّا ما سواه فالواجب مقاطعته بل ونراه يدمج ذلك ضمن طاعة الله في إشارة إلى صنف المخاطر التي قد تتأتّى عن الاقتراب منه. ونُشير في هذا المستوى إلى أنّ ابن سينا أتى على ذات التقسيم بين الأحق والعاقل تبعاً لاختلاف تموضع القوى عند كلّ منهما كما ورد ذكره مع الغزالي، وهو ما يعود في نظرنا إلى وحدة الأصول النظريّة المعتمدة في مبحث الأخلاق عند الفيلسوفين.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - الإحياء، ص 204.

<sup>2</sup> - يقول ابن سينا في تعريف الحمق: "هو أن يكون بحيلة للمشهورات سليمة، وعنده تجارب محفوظة، وتحمله للغايات التي يهوى وتشوق سليمة وله روية، ولكنه يتخيّل فيما ليس يؤدي إلى تلك الغاية أنّه يؤدي إليها، أو يتخيّل فيما يؤدي إلى ضدّ تلك الغاية أنّه يؤدي إليها، فيكون فعله مشهور به على حسب ما تخيّل له رويته الفاسدة. ولذلك يكون الأحق في أول ما تشاهد صورته صورة عاقل، ويكون مقصده صحيحا وكثيرا ما توقعه رويته في شرّ لم يعمد الوقوع فيه". ويقول في التعقل: "هو القدرة على جودة الرويّة واستنباط الأشياء التي هي

يتصل القسم الثاني من الشروط بأفاعيل النفس، إذ لا يكفي أن تكون عالمة بل الواجب أن تكون عاملة بما علمت. وهو ما يُحيل من بعض الوجوه على عدم كفاية تحصيل العلم في ذاته لأنّ النفس الناطقة لا تبلغ كمالاتها الخاصّة بالفضائل النظرية فحسب بل وتحتاج أيضا إلى الفضائل العملية<sup>1</sup>. يُطلب وفق ذلك في الصّاحب حُسن الخلق الذي يحصل عن مبدأ التوسّط في الأفعال، وبالجملّة مراعاة الاعتدال بين الأطراف فيكون مثلا عفيفا وعادلا وشجاعا. وبلوغ هذه المرتبة في الفضيلة ليس مشروطا بوفرة قوّة ناطقة فحسب تقوى على تحصيل العلوم، وإنّما يبقى رهين قدرة هذه القوّة على تطويع غيرها من تَوابع البدن. فإذا لم يكن للمرء سطوة على نفسه الغضبيّة والشهوانيّة وبالجملّة أهوائه عسُر عليه توجيه أفعاله نحو الجلم واللطف والشّجاعة والكرم. وكثيرا ما يتوقّر العلم في الصّاحب الذي يُغالبه الهوى عند الشّدائد فلا يأتي من الأخلاق إلّا أرذلها ومثله لا يشفع له علم في نيل المعاشرة ولعلّ مهاجرته أفضل.

يقول الغزالي في ضرورة التوسّط المضاعف في الأفعال والقوى: "ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إمّا بنفسه وإمّا إذا فهم. وأما حسن الخلق فلا بدّ منه، إذ ربّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أو أطماع هواه، وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته، وتقوم أخلاقه فلا خير في صحبته"<sup>2</sup>.

---

أجود وأصلح فيما يعمل ليصلح بها الإنسان خير عظيم." رسالة البرّ والإثم، ضمن كتاب علي زيعور، ميادين العقل العملي في الفلسفة الإسلامية الموسّعة، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط1، 2001، ص177-179.

<sup>1</sup> - لا يحيد الغزالي عن المسار الفلسفي - من أرسطو إلى ابن سينا- فيما يتعلّق بتقسيم فضائل النفس إلى نظرية وعملية والإقرار بمبدأ التوسّط فيها، ونقف على ذات التّقسيم عند الشّيخ الرّئيس الذي يقول في هذا الباب: "الفضائل صنفان: نظقيّة وخلقّيّة"، رسالة البرّ والإثم، ص174.

<sup>2</sup> - الإحياء، ص 205. أرجع الغزالي صدور الأفعال الفاضلة وضدّها إلى صراع القوة الناطقة والقوى التّابعة للبدن في قوله: وهذه القوّة هي التي يجب أن تتسلّط على قوى البدن على حسب ما توجيه أحكام القوّة التي نذكرها حتى لا تنفعل عنها البتّة بل تنفعل هي عنها وتكون مقموعة دونها لئلا يحدث فيها عن البدن هيئات انقياديّة مستفادّة من الأمور الطّبيعيّة وهي التي تسمّى رذائل الأخلاق، بل يجب أن تكون غير منفعله البتّة وغير منقادّة بل متسلّطة مستولية فتكون لها فضائل الأخلاق، معارج القدس، ص49-50.

تعتبر الفضائل الخلقيّة شرطا لازما في المقصود صحبتها، لأن وجودها ترجمة لحضور الطّابع الإنساني المنشود. ويُطلب للمخالطة من اكتسب جملة خصال تعبّر عن تمكين الفضيلة من الإنسان والتي يمكن تصنيفها صنفين، خصال ترتبط بالذّات وخصال تعود على علاقة الذات بغيرها. تُختزل الأولى في العلم والأدب والصّدق والحبّ والكرم والصّبر والحياء والعفة وتتصل الثانية بالإيثار والتعاون والاعتراف والتّوادم وغيرها كثير ممّا يضيق عنها الموضع.

والمعلوم أنّ من لم يحظ بهذه الخصال في نفسه عسّر عليه تحصيل غيرها المتّصل بعلاقته بالآخرين فلا يتسوّى مثلا لفاقد العلم الاعتراف بمن سواه والتّواضع وتجاوز الكبر، كما يقوى الصّداق أكثر من غيره على العفو والستر. ويكون الكريم أيضا ناصحا ومخلصا ومتعاونا والصّابر حليما وعفوا ورؤوفا مع الآخر.

تُضاف إلى هذه الخصال صفات أخرى تدخل في باب الأعدام، وتنقسم بدورها قسمين: قسم يعود على الذّات وقسم يتّصل بالغير، بل إن الخصال الأوّل لا تكتمل وتبلغ أقصاها إلّا عن درء لهذه الثّواني لذلك أدرجها الغزالي في باب المهلكات.

ويُحيل القسم الأوّل من المعدامات على ضرورة تجنّب الحمق للأسباب التي ذكرناها سابقا والكذب والجبن والفسق وأيضا الحسد والبخل لما لها من أضرار على النّفس وغيرها.<sup>1</sup> ويدعو الغزالي في القسم الثّاني إلى تجنّب أمور كثيرة نذكر منها الإبداع والنّفاق والخوض في الباطل واستحقار الغير والسّخرية منه لما لها من تأثير مباشر على اختيار الأصحاب. وإذا كان الاحتقار والسّخرية معلومة المخاطر على علاقة النّاس بعضهم ببعض، فإنّ في الإبداع ما يدعو إلى الاطّلاع.

يُحذّر الغزالي في هذا الإطار من الآراء المبتدعة التي من شأنها تضليل الجماعة، ويدعو إلى تجنّب المذاهب الفاسدة التي فيها مغالطة لما ورد في الشّرع وكلّها مسائل تتجاوز مخاطرها أصحابها لتشمل المتّبعين. يقول الغزالي في هذا الباب: "فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنّميّة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها،

<sup>1</sup> - أتى الغزالي على هذه الصفات المذمومة كاشفا عن أسباب ذمّها في ربع المهلكات من كتاب الإحياء، ص 280-

أو تدبّر للتوصل إليها من غير حاجة دينيّة إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة".<sup>1</sup>

تحتاج الصّحة إلى كلّ هذه الشّروط حتّى تكون حقيقيّة وهو أمر عبّر الغزالي عن استحالة حصوله عند شخص واحد،<sup>2</sup> لذلك يرى أنّ الأصل في هذه الخصال توزّعها بين النّاس فلكلّ فرد بعضها ممّا يرفع التّكلف والإجفاف في أمر الصّحة.

ننتهي من خلال هذا التّحليل إلى نتيجتين متّصلتين: أولاً الوجه الواقعي في طرح الغزالي من خلال تأكيد ضرورة مراعاة الطّبيعة الإنسانيّة والانتباه إلى طاقة التّحمّل وتفاوت القدرة على مجاهدة النّفس لترك المفسد، لا تقوى إذن غالبية النّاس على ذلك إلّا مع خصال معدودة ويبقى اجتماعها في فرد استثناء ينسحب على الأنبياء والصّالحين من السّلف. ثانيا قيمة التّعايش في إطار الجماعة حيث تتحوّل كثرة الأصحاب إلى ضرورة يفرضها توزّع الخصال بينهم وحاجة بعضهم الدّائمة إلى بعض. يقول الغزالي في هذا الأمر: "وقلّما تجتمع هذه المقاصد في واحد، بل تتفرّق على جمع فتتفرّق الشّروط فيهم لا محالة".<sup>3</sup>

تتحوّل الجماعة إلى أصل في حصول الفوائد وهو ما يجعل المعاشرة القائمة على الاختلاف في الفضائل ضرورة، فكما يُفيد الواحد غيره في بعض الخصال يستفيد من الآخرين كلّ وفق ما توقّر فيه. نكون بذلك أمام تعايش يقوم على الاختلاط في الصّفات والأصحّ الائتلاف والتّكامل بينها، لنتهي في هذا المستوى إلى أنّ حاصل الاجتماع وفق الخصال المذكورة بصنفيها الفاضل المرغوب والمردول المتروك إنسان معتدل في أفعاله وفي قواه، وتتوقّر فيه من ثمة كلّ مقاييس الإنسانيّة والمدنيّة المطلوبة على الدوام.

### 3- مقاصد الصّحة:

<sup>1</sup> - المصدر السّابق، ص 272. تُقاس البدعة هنا بمدى الابتعاد عن الشّرع وكأنّنا أمام فعل خضر تامّ لحركة الفكر خارج هذا الإطار ولعلّ ذلك ما يعكس بداية نقد الغزالي للفلاسفة.

<sup>2</sup> - ينقد الغزالي التّستري فيما اشترطه من أمر الصّحة وهو ضرورة تجنّب "الجبابة الغافلين والقراء المداهين والمتصوّفة الجاهلين"، وذلك لما في هذه الشّروط من إجفاف من جهة وعدم إحاطة بجميع أغراض الصّحة من جهة ثانية، عد إلى الإحياء، ص 206.

<sup>3</sup> - المصدر السّابق، ص 206.

يخوض المتصوّف تجربة الصّحبة طلباً لجملة من المقاصد وتردّ مخالطته للجماعة وفق دوافع مرصودة سلفاً. يُفيد ذلك نتيجتين مرتبطتين، أولاً أنّ الصّحبة ليست فعلاً انفعالياً بل هي مسار عقلائيّ ومشروع يُبنى استناداً إلى اللقاء بالآخر مثلما بيّناه سلفاً. وثانياً أنّ الصّحبة ليست غاية تُطلب لذاتها وإنّما الأصل في إتيانها تحصيل المنافع. يقول الغزالي في مجمل حديثه عن شروط الصّحبة ومقاصدها: "وتشترط تلك الصّفات بسبب الفوائد المطلوبة من الصّحبة، إذ معنى الشّروط ما لا بدّ منه للوصول إلى المقصود، فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشّروط ويطلب من الصّحبة فوائد دينيّة ودينيّة".<sup>1</sup>

ويقسم الغزالي الفوائد قسمين، دينيّة ودينيّة ونبدأ بالأولى على اعتبارها خوادم للثّانية. ماذا يغنم المتصوّف من القبول بعلاقة الاختلاط مع الجماعة؟

تُختزل الفوائد الدينيّة في ثلاثة أمور أساسيّة وهي على التّوالي الجاه والمال والاستئناس، فالأنفس البشريّة تميل طبيعياً إلى الانفراد بهذه المتّع ومن لم يتسنّ له تحصيلها بنفسه طلبها بغيره وذلك مُبرّر التّصاحب. غير أنّ الوقوف عند هذه المبرّرات قد يجزّنا إلى دلالات كُشرت في حدّ الصّحبة عند الصّوفي والمقصود الاكتفاء بحبّ الدّنيا ولذائدها. لا تُطلب إذن هذه الأمور لذاتها وإنّما لبلوغ غايات خارجة عنها، والبقاء في مستوى المصالح الدينيّة لا يعبر بأيّ وجه من الوجوه عن غرض المتصوّف من الصّحبة. وراء كلّ غنم دنيويّ غرض آخر يتجاوزه فالجاه يُطلب في الصّاحب بغرض دفع الضّرر بكلّ أصنافه سواء كان من الآخرين أو من السلطان، وتصبح عزوة صاحب المكانة والسّياسي مرغوبة بل وضروريّة لكفّ الأذى وصرف النّفس عن عوارض تمنع العبادة وتشغل عنها. كما يُغني صاحب المال عن الانشغال بطلب القوت والتفرّغ للتّقرب من الله لأنّه الفعل الأحقّ بالجهد والوقت، ويكون الصّاحب فوق ذلك المؤنّس والسّنّد في الأزمات.

<sup>1</sup> - نفسه، ص 203.

تُطرح في هذا الاتجاه مسألة جوهريّة حول الغاية من الفعل الأخلاقي الذي تُعدّ الصّحبة أحد وجوهه، وبهذا الاعتبار لا تكون المخالطة في ذاتها هي المقصد وإنّما مجرد أداة لبلوغ ما هو أشرف منها،<sup>1</sup> ذلك ما يفسّر اعتبار الفوائد الدينيّة خادمة للفوائد الأخرويّة.

تتكوّن الفوائد الدينيّة من العلم والعمل، ويُفيد العلم الإلمام بما ورد في القرآن والسنة من أحكام، وإن لم يكن فالإطلاع على أهمّها من قواعد العقائد وأسرار الصّلاة والصّوم وكل ما يخصّ العقيدة في المجل. والأصل في كلّ هذا العلم اليقين بوحدانيّة الله والتّصديق بقدرته "من غير اختلاج ريب واضطراب نفس" كما يذكر الغزالي.<sup>2</sup>

يضمن العلم قوّة الإيمان ومن لم يكن صافي السّريّة صلّب المعتقد رفعت عنه الصّحبة، غير أنّ العلم لا يستوفي الغرض من المعاشرة لذلك وجب أن يُردف بالعمل.

ويندرج العمل ضمن ما يسمّيه الغزالي بآداب المعاملة والتي تؤخذ في اتّجاهين: أولاً ما يُفترض القيام به من فرائض كالصّوم والزّكاة وغيرها ممّا تمّ التّنصيب عليه شرعاً، وثانياً ما يستوجبه السّلوّك من مراعاة آداب الصّحبة مثلما تمّت الإشارة إليه سلفاً، ولن نفصّل القول في هذه المسائل ضمن هذا الموضوع ولكننا أثّرناها للكشف عن طبيعة المقاصد المطلوبة من الصّحبة عند المتصوّف.

تُفيد إذن مخالطة الرّاسخين في الإيمان والمتحلّين بالخلق الحسّن في إصلاح النّفوس المريضة البعيدة عن مسالك الحقّ والمتشبّثة بأمور الدّنيا. ويصبح إصلاح الذات مشروطاً بالخلاّن من جهتين، أولاً يتّخذ الأخ المخلص في أخوّته منزلة النّاصح والصّادق والمرشد إلى طريق الحقّ. وثانياً يكون الأخ من هذه الزّاوية بمثابة المحفّز نحو كشف مواطن ضعف الذات والإحالة

<sup>1</sup> - تعتبر السّعادة غاية المنافع التي يمكن أن يبلغها الإنسان، وتوظّف سائر الفوائد الدينيّة والأخرويّة لتحصيلها. ونشير هنا إلى تصنيف السّعادة صنفين حسيّة وأخرويّة والثّانية هي الحقيقيّة. وسبيلها الفضائل. يمكن العودة في هذا الباب إلى ابن سينا، أحوال النّفوس: رسالة في النّفوس وبقاءها ومعادها، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، ط1، 1952، ص135، وفيها يقول: "إن هذه السّعادة الحقيقيّة لا تتمّ إلا بإصلاح الجزء العملي من النّفوس". يحيل ذلك على اعتماد الغزالي ذات المقدّمات الفلسفيّة في تفسير مقاصد الصّحبة والتّأكيد على الفوائد الدينيّة.

<sup>2</sup> - كتاب الإحياء، ص 90.

بالتالي على كفيات تصويب أفعالها. والمقصود دفع الذات إلى اكتساب مناعة خاصة لتصحيح اعوجاجها بنفسها ومقاومة طوارئ انكسارها.

نكون بذلك أمام مقصدين مختلفين للمخالطة، واحد يتصل بالمحاكاة وعليه يُطلب الاكتفاء في الصّحبة بالأفاضل وتجنّب الأراذل ومقصد آخر يرتبط بمدى انعكاس ما يحمله الغير من مقومات في الذات فيكون عبارة عن مرآة كاشفة لمواضع خلل الذات ولمواضع قوتها في أن.<sup>1</sup> تصبح الصّحبة على هذا النحو سبيلا لإصلاح الذات وأداة توجهها نحو المنافع الدنيّة بما هي الإقرار بوحدانيّة الله والعمل بفرائضه.

ننتهي في هذا المستوى إلى ائتلاف المنافع الدنيّة والدنيويّة بل وإقرار سير الثّانية خدمة للأولى على اعتبار أنّ الجامع والمقصد هو الله وليست المنافع في ذاتها. وتؤتى إذن كلّ أفعال الإنسان في إطار طاعته وباتجاه عبادته، وعليه لا يجوز البتّة أن يخرج التّصاحب عن هذه الأطر والمقاصد أي أن لا تُطلب المخالطة إلّا للتقرب من الله، وإذا لم تتوفّر هذه الأسباب فالأولى الانفراد.

تتحول العزلة إلى ضرورة عند المتصوّف لأنّها ليست أصلا في المعاملة وإنّما أمر حتمه ضرب الصّحبة، وإذا لم تحضر السّلامة في المخالطة جازت السّلامة في الانقطاع. يقول الغزالي ناصحا كلّ باحث عن التّصاحب: " فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به."<sup>2</sup>

يبقى لذلك الانعزال بكلّ ما يتبعه من غربة ووحشة أفضل من الاستئناس بمثل هذه الصّحبة. ومعاشرة السّوء ضرر خالص لأنّها تُبعد عن المقاصد الحقيقيّة للصّحبة بما هي

<sup>1</sup> - نقف مع ابن سينا عند دور المخالطة في عكس حقيقة الذات وهو ما يحيل على مدى توفّر التوجّه الفلسفي في تصوّر الغزالي للصّحبة من جهة المنافع. يقول الشّيخ الرئيس: " ولما كانت معرفة الإنسان نفسه غير موثوق بها، لما في طباع الإنسان من الغباوة عن مساوئه وكثرة مسامحته نفسه، ولأن عقله غير سالم عن ممانجة الهوى إياه، عند نظره في أحوال نفسه، كان غير مستغن في البحث عن أحواله عن معونة الأخ اللبيب الوادّ الذي يكون منه بمنزلة المرأة فئريه حسن أحواله حسن وسيّئها سيّئاً"، رسائل في التربية والسياسة المنزلية ضمن كتاب علي زيعور، ميادين العقل العملي، ص 149.

<sup>2</sup> - عد إلى كتاب الإحياء، ص 207.

القرب من الله قدر الطّاقة، من خلال العبادة والتّقوى والورع كما ورد التّنصيص عليه كتابا وسنة وفي سيرة السّلف.

بدا الغزالي في هذا المستوى مكتفيا بما ورد في الفكر الصّوفي من تشريع للانفراد، ومؤكّدا على وجه آخر لأخلاق المعاشرة مغاير من عدّة وجوه لما وجد في الفكر الفلسفي. ذلك أنّ الأوّل يتّخذ من العزلة فضيلة في حين يجد فيها الثّاني تعبيرا عن خلل في الدّوات نتيجة ضعف قدرتها على الاتّصال بالغير.<sup>1</sup>

### خاتمة

نخلص إلى أنّ تصوّر الغزالي لمدينة الوجود الإنساني ورد نتاجا لتقاطع بُعدي الفكر الفلسفي والصّوفي، وهو ما انعكس بالخصوص في الحضور المضاعف لمقومات نظرية الأخلاق من جهة ولسبل تحقّقها عمليّا من جهة ثانية. نكون بذلك أمام تصوّر للصّحبة يتأسّس على الموازنة بين التّأصيل الفلسفي والمقتضيات الصّوفيّة، وهو ما يُفيد من بعض الوجوه تطويع الأصول النظرية لتشريع سلوك مخصوص للمتصوّف يُراعي في علاقتها بالآخرين ما وُجد من إرث تابع لهذا الفكر.

ينتهي بنا الإقرار بهذه المنطلقات عند بعض النّتائج التي يتقاطع فيها كما ذكرنا المنحيان الفلسفي والصّوفي في تصوّر الغزالي نخزّلها في النّقاط التّالية:

تأكيد الغزالي على قيمة مفهوم الصّحبة عند المتصوّفة والتّنصيص من ورائه على خصوصيّة علاقة المتصوّف بالجماعة والتي قوامها المخالطة والمعاشرة، والانتفاء مع

<sup>1</sup> - يمكن العودة للوقوف على منزلة العزلة في الفكر الصّوفي إلى الرّسالة القشيرية وورد فيها: "الخلوة صفة أهل الصّفوة، والعزلة من أمارات أهل الوصلة، ولا بدّ للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثمّ في نهايته من الخلوة لتتحقّقه بأنسه"، ص 196. ونورد بخصوص التّصوّر الفلسفي في نفس الباب قول الشّيخ الرّئيس: "واعلم أن الإنسان مدني بالطبع لا بدّ له من الكون بين أمثاله، ولا تظهر فضائله إلّا بالأفعال التي لا يمكن أن يفعلها إلّا بين الأمثال. وأما من بعد عن النّاس وسكن في المغاور والصّوامع، أن يترك السّاحة، فإنّه عديم الفضائل لا تأتي منه أفعال السّعداء، لأن الفضائل ليست إعداما بل أفعالا". رسالة في قوى النفس ضمن كتاب علي زيعور ميادين العقل العملي، ص 188.

أهل التصوّف إلى اعتبار العزلة عَرَضاً ينحى إليها إذا لم يتوفّر في الآخر مقوّمات اللّقاء الحسن.

ربط التّصاحب بشروط تميّز عموماً بالصّرامة ترفعها إلى مستوى المقوّمات التي تُعسّر تعميم حصول الصّحبة على جهة التّحقيق، وفي هذا المستوى تظهر ملامح التّأصيل الفلسفي للأخلاق في تصوّر الغزالي لهذه المسائل.

نخبويّة فعل الصّحبة بالنّظر إلى طبيعة الشّروط المحدّدة لحصولها، فإذا وقفنا أساساً عند معطبي التعقّل وحسن الخلق تبين أنّها فعل ينسحب على خاصّة الخاصّة من المتصوّفة.

يبقى مفهوم الصّحبة وعلى أهمّيته مشدوداً إلى مقاصد خارجة عنه، فالانفتاح على الآخر محكوم بتحقيق قرب من الله يكون فيه الإنسان مجرد واسطة لا غير، وإجمالاً ذلك ما يحكم كامل البنية الأخلاقيّة للتصوّف.